أسُس المنهج المقارن عند الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية)

أ. د. سهيلة طه محمد د. طاهر صالح علاوي
جامعة تكريت / كلية التربية / قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مستحق الحمد، والصلاة والسلام على حامل لواء المجد، محمد الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تعدَّدت مناهج البحث اللغوي في العصر الحديث تعددا كبيرا، وتنوعت سبل دراسة اللغة، وقد أسهمت علوم مختلفة في إثمار مناهج دراسة اللغة على النحو الذي صار معروفا في الدرس اللغوي الحديث.

وكان من تلك المناهج في دراسة اللغة والبحث في أصولها المنهج المقارن، الذي يُعَدُّ جزءا من المنهج التاريخي في دراسة اللغة. ويتميّز عنه ببحث الظواهر اللغوية في أكثر من لغة، ويعنى ببحث الظواهر اللغوية في اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، كاللغات السامية واللغات الهند– أوربية، وغير ذلك[1].

وتشير بعض الأبحاث الحديثة إلى أنَّ الدراسات المقارنة كانت من أبرز ما يميِّز الدراسات الاستشراقية لغويا [2].

والهدف من دراسة الظواهر اللغوية دراسة مقارنة هو التأصيل التاريخي ((كأنْ يُسْتَدل على قدم الظاهرة بالتماسها في أخواتها، أو حداثتها بتفرد اللغة المعنية بها من بين أخواتها، وفق تاريخ حياة تلك اللغة، وقد يبحث الظاهرة في لغات تنتمي إلى أصول متنوعة، ولكن غايته تبقى تأصيلية تطورية))[3].

وبيّن الباحثون المحدثون أنَّ مجال الإفادة من المنهج المقارن في دراسة اللغة مجالٌ واسعٌ، ويمكن أنْ يشمل جوانب مختلفة من الدراسات اللغوية، ومن ذلك[4]:

١ – الدراسات المعجمية:

ونلجأ فيها إلى المنهج المقارن بغية الكشف عن الألفاظ الأصيلة وتمييزها عن الدخيلة في مختلف اللغات، ومن ذلك الكشف عن الألفاظ العربية الأصيلة وتمييزها عن الدخيلة – مثلاً.

٢– الدراسات النحوية:

يذهب الدكتور إسماعيل عمايرة إلى بيان السبب الذي دعا طائفة من الباحثين إلى اعتماد المنهج المقارن في دراساتهم النحوية، فبيَّن أنَّ ذلك كان ((في سبيل البحث عن القواسم المشتركة التي تجمع اللغات السامية في إطار واحد من الأصل المشترك))[5].

٣– الدراسات الصرفية:

وقد كان للمنهج المقارن الأثر البارز في الكشف عن الكثير من الأقيسة المهجورة، فضلا عن بيان الصيغ الصرفية التي تأثرت فيها العربية بغيرها، أو الصيغ التي اشتركت فيها العربية مع أخواتها، والصيغ التي انفردت بها عنها.

وقد شاع بين كثير من الدارسين العرب الالتجاء إلى المقارنة بين اللغات السامية في سبيل بحث طائفة من الظواهر اللغوية بحثا عميقا، بعيدا عن دراستها بطريقة تنبع من اللغة نفسها، وقد حققت الدراسة المقارنة هذه جملة من النتائج المتميزة وكشفت الكثير من الحقائق العلمية البارزة، وبيّنت ما هو أصيل في العربية مما هو مقترض من لغات سامية أخرى.

وكان من بين هؤلاء الباحثين العرب الدكتور رمضان عبد التواب الذي خصص لهذا المنهج مساحة جيدة في كتابه (فصول في فقه العربية) بحث من خلالها طائفة من الظواهر اللغوية بحثا مقارنا، فكشف عن نتائج جيدة من خلال هذه المقارنة.

وكان من أبرز المسائل اللغوية التي بحثها بحثا مقارنا:

١– دراسة خصائص اللغات السامية.

٢- أهمية الأبحاث المقارنة في دراسة العربية.

٣- أهمية الدراسة المقارنة في تحليل الظواهر اللهجية.

٤- مناقشة فكرة ثنائية الأصول.

٥- دراسة أصالة الإعراب في العربية.

وكانت هذه الموضوعات هي مباحث هذه الدراسة الموجزة المهتمة بالكشف عن معالم المنهج المقارن عند الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية).

والله ولي التوفيق.

تمهيد

لعل أبرز ما يميِّز الدراسات الحديثة عن الدراسات القديمة في اللغة يرجع إلى طريقة التناول، وأسلوب المعالجة، ولعل ذلك واضح للباحث الذي يريد دراسة المناهج اللغوية[٦].

ما المقصود بالمنهج ؟

المنهج لغة:

قال الخليل:((طريق نهج واسع واضح، وطرق نهجة،... ومنهج الطريق وضحه، والمنهاج ؛الطريق الواضح))[٧].

فالمنهج الطريق الواضح الواسع[٨]. وقال ابن فارس في أصل اشتقاق اللفظ: ((النون والهاء والجيم أصلان متباينان ؛الأول النهج الطريق، ونهج لي الأمر أوضحه، وهو مستقيم المنهاج، والمنهج الطريق أيضا والجمع المناهج))[٩].

المقارن لغة:

قال ابن فارس: ((القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما يدل على جمع شيء إلى شيء، والآخر شيء ينتأ بقوة وشدة،فالأوَّل قارنت بين الشيئين))[١٠]، وقال الزبيدي: ((و القَرْنُ شَدُّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ ووَصْلُه إليه وقد قَرَنَه إليه قَرْناً))[١١].فالمقارن من القرن الذي هو الربط بين شيئين.

المنهج المقارن اصطلاحا:

وهو الطريقة المتبعة في دراسة الظواهر اللغوية في أكثر من لغة عن طريق المقارنة والربط بينها ويكون هدفه التأصيل التاريخي لتلك الظاهرة[١٢].

ويمتاز المنهج المقارن عن المنهج التاريخي بأنّه يبحث الظاهرة في أكثر من لغة، ويركز في اللغات التي تنتمي إلى أصل واحد كاللغات السامية أو الهند أوربية أو غيرها[١٣]. والهدف من البحث في المنهج المقارن التأصيل التاريخي للظواهر اللغوية[١٤].

الدكتور رمضان عبد التواب:

ولد العالم اللغوي الدكتور رمضان عبد التواب في قرية قليوب بمحافظة القليوبية بمصر يوم الجمعة ٢٣ رمضان ١٣٤٨ هـ / ٢١ شباط ١٩٣٠ م. وسُمِّي باسم الشهر الفضيل الذي ولد فيه.تلقى تعليمه الابتدائي وكان الأول على دفعته في كل المراحل الدراسية الإبتدائية،ثم دخل المعهد الديني وكان الأول.ثم دخل كلية دار العلوم، وتخرج منها عام ١٩٥٦ م، وكان الأول على دفعته،ثم حصل على بعثة دراسية إلى ألمانيا لمدة خمس سنوات لدراسة الماجستير والدكتوراه في مادة (فقه اللغة).

أتقن خلال بعثته اللغات (الألمانية والسريانية والحبشية والأكادية والفارسية والتركية والفرنسية واللاتينية والعبرية والسبئية والمعينية)،والتقى خلال دراسته بكبار علماء اللغة من أمثال يوهان فك وهانزفير وأوتوشبيس وريتر وزلهايم، وحصل على الماجستير والدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

عُيِّن مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية في مدرسة النقراشي النموذجية في القاهرة عام ١٩٥٦ م، ثمَّ عين مدرسا في جامعة عين شمس عام ١٩٦٣ م.وشغل مناصب إدارية ومشاركات علمية كثيرة في التدريس والمؤتمرات والندوات في بلدان مختلفة.

له مؤلفات كثيرة تزيد على ثلاثة عشر مؤلفا، فضلا عن ترجمته للعديد من الكتب في فقه اللغة، كما وحقق أكثر من ثلاثين كتابا، ونشر أكثر من ١٣٠ بحثا علميا. وأشرف على أكثر من ألف رسالة ماجستير وأطروحة دكتوراه.

توفي العالم الكبير رمضان عبد التواب رحمه الله في ٨ جمادي الآخرة ١٤٢٢ هـ / ٢٧ آب ٢٠٠١ م [١٥].

كتاب فصول في فقه العربية:

نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٧٣ م، وطبع طبعات عدة كان آخرها طبعة مطبعة الخانجي الثانية عام ١٩٨٠ م. يتكون الكتاب من خمسة أبواب، وكل باب يشتمل على فصول عدة. ويتكون من ٤٥٠ صفحة.

مَهّد للكتاب ببيان الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة، وأشار إلى جهود علماء العربية في فقه اللغة، وبعد التمهيد جاء الباب الأول *في أولية اللغة*، وفيه ثلاثة فصول:الأول(اللغة العربية واللغات السامية)، والثاني(النقوش العربية الشمالية)، والثالث (مشكلة توثيق النصوص)،

والباب الثاني *في العربية الفصحى واللهجات*، وفيه ثلاثة فصول:الأول (ظروف تكون العربية الفصحى وخصائصها)، والثاني (لو لا القرآن ما كانت عربية)،والثالث(ألقاب اللهجات العربية)،والباب الثالث *بين الشعر والنثر* وفيه ثلاثة فصول:الأول(خصائص الكلام بين الشعر والنثر)، والثاني(ضرورة الشعر والخطأ في اللغة)، والثالث (أثر الوزن الشعري في أبنية العربية)، والباب الرابع *الثراء اللغوي في العربية* وفيه أربعة فصول، الأول(المعاجم العربية نظرة تاريخية)، والثاني(الاشتقاق وتوليد الصيغ)، والثالث (ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظي والتضاد في العربية)، والرابع(التعريب وألفاظ الحضارة)، والباب الخامس *من قضايا اللغة ومشكلات العربية*،وفيه ثلاثة فصول،الأول (قضية الإعراب)، والثاني(مشكلة الخط العربي وأوهام اللغويين)، والثالث (مشكلة تعليم العربية).

تطبيق المنهج المقارن في الكشف عن خصائص اللغات السامية

لجأ الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية) إلى المنهج المقارن في سبيل الكشف عن طائفة من خصائص اللغات السامية –(الجزرية)–، واللجوء إلى هذا المنهج في سبيل الكشف عن مثل هذه الخصائص له فوائده من الناحية العلمية ؛ ذلك أنَّ طائفة من تلك الخصائص كنّا نحسب أنّها مِمّا تختص بها العربية، أو مِمّا تتميّز به، فجاء بحث الدكتور رمضان عبد التواب هنا فرصة لإزالة مثل هذا الوهم العلمي.

ومن هذه الخصائص:

١- نحن نعلم أنَّ الأصوات اللغوية يمكن أنْ تصنف إلى صنفين ؛ صامتة ومصوتة، وقد نبَّه الدكتور رمضان عبد التواب على أنَّ من خصائص اللغات السامية الاعتماد على الأصوات الصامتة في بيان المعنى الأساسي للكلمة، دون الصوائت أو المصوتات التي تقتصر وظيفتها على تحوير هذا المعنى وتعديله[١٦].

ومن ذلك في العربية – مثلا – أنَّ الفعل (كَتَبَ)تدل فيه الأصوات الصامتة (ك، ت، ب) على معنى الكتابة، أمّا ما يلحق هذا الفعل من صوائت قصيرة أو طويلة فهي تدل على تحوير هذا المعنى وتغييره، مثل (كَتَبَ، كُتِبَ،كاتب، مكتوب... الخ).

((ولهذا السبب يمتاز الفعل في اللغات السامية بسلسلة من الأوزان المزيدة التي تعبّر عن معانٍ مشتقة من المعنى الأساسي، وتصاغ بتغيير الجذر تغييرات ثابتة، للتعبير عن شدّة الفعل أو تكراره وعن السببية وعن المطاوعة، والمشاركة في الفعل، والبناء للمجهول، وغير ذلك))[١٧].

٢- وبيَّن الدكتور رمضان عبد التواب أنَّ اللغات السامية تشترك في امتلاك طائفة من الأصوات كالأصوات الحلقية من مثل العين والحاء والهاء، وبعض الأصوات المفخّمة كالصاد والطاء[١٨].

الأسس التي اعتمدها رمضان عبد التواب في كتابه:

أ. المنهج التقابلي:

إنّ ظاهرة المقابلة بين اللغات لغرض التأصيل أو التعليم قديمة في التأليف عند العرب، إلا أنَّ تبلور المنهج التقابلي بشكله الذي عليه اليوم لم يكن له تاريخ طويل، ولعل التقابل بين اللغات يأتي في أكثر الحالات هو التقابلات في الصوت والتقابلات في الوظائف[١٩].

وأفاد الدكتور رمضان عبد التواب من المنهج التقابلي في مقارنته للغات السامية بقصد التأصيل للظواهر اللغوية:

ونلمح أحيانا لجوء الدكتور رمضان إلى المنهج التقابلي في سبيل الكشف عن خصائص اللغات السامية وبعض خصائص اللغات الهند – أوربية، ومن ذلك – مثلا – حديثه عن اختفاء ظاهرة تركيب الكلمات في اللغات السامية ووجودها في اللغتين الانجليزية والألمانية إذ يقول: ((ولا تعرف اللغات السامية تركيب الكلمات (أسماءً وأفعالا)وذلك مثل: describe(des + cribe) (وَصَفَ) في الإنجليزية = beschreiben (be + schreiben) في اللغة الألمانية... وإنْ كان المضاف والمضاف إليه في اللغات السامية يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطا وثيقاً، يكاد يحيلهما في بعض الأحيان كلمة واحدة))[٢٠].

ب: الرجوع إلى الساميات لكشف أصول العربية وتطورها:

لقد قدَّم علماء العربية السابقون جهوداً واضحة في سبيل تفسير الكثير من الظواهر اللغوية، وهي محاولات جادة تبيّن قدرة أولئك العلماء في البحث عن تفسير مقنع لكثير من الظواهر التي تقع بين أيديهم.

وتبقى تلك المحاولات أو كثير منها خاضعة لإعادة النظر ومحاولة تقديم محاولة جديدة لتفسير ما تمت دراسته من ظواهر لغوية بحسب ما يتوصل إليه الدرس اللغوي من مناهج حديثة في التحليل والتفكير.

ويقدّم لنا الدكتور رمضان عبد التواب محاولات جادة في سبيل تفسير بعض الظواهر اللغوية العربية من خلال مقارنتها بأخواتها الساميات، ونلاحظ أنَّ تلك الظواهر قد فُسِّرت عند علماء العربية بطريقة ما، ثم جاء البحث المقارن ليقدم لنا طريقة جديدة في البحث والدراسة والتحليل.

ومن ذلك:

١- الإعراب:

وتكاد كلمة علماء العربية تتفق على أنَّ الإعراب في العربية دالٌ على المعاني المختلفة التي تعتور الألفاظ المعربة أسماء وأفعالا، قال أبو القاسم الزجاجي (ت٣٧٧ هـ): ((إنَّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها، ولم تكن في صورها

وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة، جُعِلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني))[٢١].

وهذا مذهب جمهور علماء العربية على اختلاف مدارسهم وتنوع مذاهبهم، ولم يخرج على إجماعهم أحد إلا قطرب (محمد بن المستنير – ت ٢٠٦ هـ) الذي ذهب إلى القول: ((لم يُعْرَب الكلام للدلالة على المعاني، والفرق بين بعضها وبعض... وإنما أعربت العرب كلامها لأنَّ الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وَصله بالسكون أيضا يلزمه الإسكان في الوقفِ والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام))[٢٢].

إلا أنَّ هذا الرأي تعرض لنقد شديد من علماء العربية إذ لم يحظَ بالقبول في التراث اللغوي العربي، على نحو ما نجد من ردود عليه في كتاب (الإيضاح في علل النحو) للزجاجي[٢٣].

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ رأي قطرب هذا ما هو إلا محاولة في تفسير (الإعراب)، وسبب ظهوره في الكلام العربي، وليس شكّاً في أصالته.

أما المحدثون فإنَّ منهم من أعاد مناقشة قضية (الإعراب) من جديد وذهب في تفسيرها مذاهب شتى، ولكن الدكتور إبراهيم أنيس كان أبرز من عرض هذه الفكرة عرضا جديدا، وذهب إلى إنكار أصالتها في العربية، وإنَّ هذا النظام الإعرابي في العربية كان من وضع النحويين، إذ يقول: ((قصة الإعراب ما أروعها قصة استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري، أو أوائل القرن الثاني على يد قوم من صنّاع الكلام، نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصنا منيعا، امتنع على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية، وشق اقتحامه إلا على قوم سُمُّوا فيما بعد بالنحاة))[٢٤].

ولقد أثار هذا الرأي طائفة من الردود والمناقشات، وقدَّم الكثير من اللغويين العرب أدلّة رأوها مقنعة في سبيل نقض ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس في رأيه هذا وإثبات أصالة الإعراب في العربية.

وممن رد على رأي الدكتور إبراهيم أنيس الدكتور صبحي الصالح فقال: ((وهذا غلو لا ريب فيه، فلقد يكون للنحاة عمل شخصي في تنسيق ما استنتجوه من أصول النحو وقواعده من كلام فصحاء العرب، ولقد يتشددون أحيانا في رمي شاعر فحل باللحن غير مبالين بضرورة شعرية ملجئة... ولكن عملهم الأساسي في قواعد الإعراب يظل أسمى من أنْ يُتَّهم وأوثق أنْ يُجرَح))[٢٥].

وأما موضوع بحثنا الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية) فقد قدَّم مجموعة من الأدلَّة للبرهنة على أنَّ الإعراب أصيل في العربية، مثل وجود الإعراب كاملا في القرآن الكريم والرسم القرآني الذي نُقل إلينا متواترا، والذي يؤيد وجود الإعراب في العربية الفصحى.

ونجد الدكتور رمضان يستدل على أصالة الإعراب في العربية بين اللغات السامية، إذ تبيَن من خلال هذه المقارنة أنَّ (الإعراب) موجود في أكثر من لغة سامية مما يَدُلُّ على أصالته.

ويشير الدكتور رمضان عبد التواب إلى وجود الإعراب في اللغة الأكدية بفرعيها البابلية والآشورية، ومما يشهد على ذلك بالصحة ما جاء في قانون حمورابي من نصوص واضحة تتضمن الكثير من ظواهر الإعراب كما هو الحال في العربية الفصحى تماما، فالفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، وعلامة الرفع الضمة، وعلامة النصب الفتحة، وعلامة الجر الكسرة، ومن ذلك:

– **šUmma awēlum awēlam ubbirmg** إذا اتَّهم إنسانٌ إنسانا، إذ نلاحظ أنَّ (**awēlum**) بمعنى: (إنسان)، جاء في حالة رفع، وظهر في هذا اللفظ ما يقابل (الضم) في العربية (**um**)، في حين أنَّ (**awēlam**)وتعني (إنسانا) جاءت في حال نصب، وظهر فيه ما يقابل الفتحة في العربية (**am**).

وكذلك نلاحظ أنَّ المثنى في الأكادية يماثل استعماله في العربية، فيرفع بالألف، وينصب ويجر بالياء، إذ نلاحظ فيها مثلا: (**inan**) بمعنى (عينان) في حالة الرفع، و (**īnēn**) في حالتي النصب والجر.

وإذا تأملنا اللغة الأوجاريتية – وهي إحدى اللغات السامية – لوجدنا فيها نظاما للإعراب قريبا مما هو عليه في العربية، ويتضح هذا النظام أكثر ما يتضح في الرمز الدال على صوت الهمزة ((فإنَّ هذا الرمز له ثلاث صور ونجد في هذه الكتابات الأوجاريتية أنَّ الكلمة إذا كانت منتهية بالهمزة صورت الهمزة بإحدى الصور في حالة الرفع، وبالصورة الثانية في حالة النصب، وبالصورة الثالثة في حالة الجر))[٢٦].

وبهذه الطريقة التي تعتمد المقارنة بين اللغات السامية أثبت الدكتور رمضان عبد التواب أصالة الإعراب في العربية، وأنَّه ليس حادثا أحدثه النحاة، بل هو قديم تعود أصوله إلى اللغة السامية الأم، كما يشهد بذلك وجود الإعراب في عدد من اللغات السامية كما رأينا سابقا.

٢- ما جاء في قوله تعالى ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ (البقرة ٦١) فقد قرأ ابن مسعود (وثومها وعدسها) [٢٧]، فهل الأصل أنْ تكون الكلمة بالفاء (فوم) أم بالثاء (ثوم)؟.

والإجابة عن ذلك تكون بالرجوع إلى مقارنة اللغات السامية، فقد أثبت البحث السامي أنَّ الشين العبرية التي تقابل التاء الآرامية تقابل الثاء الغربية، فكلمة (شُوْر) **öŠr** في العبرية تقابل تَورا **tawrã** في الآرامية، وتقابل كلمة(ثَور) في العربية.

وكذلك كلمة (شُوم) **Šūm** في العبرية تقابل كلمة (توما) **tawma** في الآرامية، وتقابل كلمة (ثوم) في العربية. فدلت هذه المقارنة على أنَّ أصل الكلمة هو (ثوم) بالثاء وليس بالفاء[٢٨].

٣- والفكرة السائدة في المباحث اللغوية العربية أنَّ (ليس) فعلٌ ماضٍ ناقص، وهو جامد لا يتصرف، ولكننا إذا نظرنا إلى (ليس) في ضوء الدراسات السامية المقارنة نتبيّن أنَّ (ليس) مركبة من (لا) و(أيس)،وهذا ما ذهب إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي[٢٩]، التي لا وجود

لها الآن في اللغة العربية ((وهذه الكلمة تقابل في العبرية (يِش) yēŠ بمعنى يوجد، ونفيها: (أل يشِ) ályŠē = ليس، وكذلك في الآشورية: (إِشُو) iŠu، ونفـيها: (لَشّو) laŠŠu وهكذا))[٣٠].

٤- ونحن نعلم الخلاف الشهير بين البصريين والكوفيين حول أصل كلمة (اسم)، فهو (سَمَوٌ) كما يذهب البصريون،و(وَسْمٌ) كما يرى الكوفيون، إذ إنَّ اللغويين العرب يرون أنَّ الهمزة في (اسم)همزة وصل، وهي بدل عن حرف ثالث في الكلمة، ثم اختلفوا في تحديده[٣١]. تُعَدُّ العربية واحدة من أبرز اللغات السامية التي تعتمد الإعراب أصلا في الدلالة على المعاني الوظيفية للمفردة في داخل الجملة. فيلاحظ في هذه اللغة أنَّ الكلمة المفردة يتنوع موقعها الإعرابي وعلاماتها الإعرابية بحسب موقعها من الكلام.

ت: كشف الأصول الثنائية والثلاثية بالرجوع إلى الساميات:

إلا أنَّ البحث المقارن يبيِّن أنَّ الكلمة ذات أصل ثنائيّ، مثل كلمات أخرى ثنائية الأصول، مثل: يد، و دم، فكلمة (اسم) في العربية تقابلها في العبرية (شِمْ) Šēm، وفي الآرامية (شَما) Šmã، والألف الأخيرة فيها أداة التعريف، وفي الحبشية (سِم) sem، وفي الأكادية (شُمُ) Šumu[٣٢].

الفكرة السائدة في التراث اللغوي العربي هي أنَّ الأصل في المادة اللغوية أنْ تكون على ثلاثة أحرف أو ثلاثة أصول، وأنْ يحمل المعنى العام للمادة على هذه الأصول الثلاثة.

إلا أنَّ بعض اللغويين المحدثين ذَهَبَ– في بداية القرن الماضي – إلى أنَّ الأصل في المادة اللغوية أنْ تكون مبنية على حرفين اثنين، وأنَّ الحرف الثالث الذي يزاد فيها إنّما هو يجري مجرى قانون التطور اللغوي، قال أحدهم: ((وكلُّ حرف زيد على الأصل الثنائي يجري على قانون التطور اللغوي تتويجا أو إقحاما أو تذييلا، مع بقاء اللحمة المعنوية بين الثنائي والثلاثي، كما هي مستمرة بين الثلاثي والرباعي، وما فوقه من المزيدات))[٣٣].

وصاحب هذا الرأي هو الأب مرمرجي الدومنكي الذي استدل على صحة مذهبه هذا بمقارنة العربية ببعض اللغات السامية في قسم من الأفعال وهو الثلاثي المضعَّف، إذ يقول: ((المضاعف العربي الذي يقال إنَّه مركب من ثلاثة أحرف أصلية لا نجد مقابله في السريانية إلا

بحرفين اثنين لا أكثر، مثلا: مقابل (قصَّ) = قص، وبحذاء (حمَّ) = حَمْ، وبإزاء (مَسَّ) = مَسْ، وهكذا كُلُّ المضاعفات التي هي بالحقيقة ثنائيات، والثنائي وارد في كل الساميات))[٣٤].

وقد اتخذ الدكتور رمضان عبد التواب من المنهج نفسه أداة لمناقشة فكرة الثنائية هذه، أي أنَّه سلك طريق المقارنة بين اللغات السامية نفسها من أجل ردّ فكرة (ثنائية الأصول)عند مرمرجي الدومنكي ومن أخذ بهذه الفكرة، يقول الدكتور رمضان عبد التواب – معلقا على فكرة أنَّ المضعف الثلاثي في العربية يقابل الثنائي في السريانية: ((ونسي الأب مرمرجي أنَّه عند إسناد المضاعف إلى الضمائر في العبرية والسريانية يظهر التضعيف، فيقال في العبرية مثلا: **Φ̱ב sab̲** بمعنى (أحاط) بغير تضعيف، وعند إسنادها إلى المتكلم مثلا يقال: (Φ‌I≡iπ̋) **sabbãti** فيظهر التضعيف، وقد يفك التضعيف فيقال: **Φ̱ בַ̱כπ˜ sãb̲ab̲ti**، وانظر كذلك في العبرية □ב **lēb̲** بمعنى (قلب) إذ لا تضعيف فيها للباء لوقوعها في آخر الكلمة، ولكنها عند الاتصال بالضمائر يظهر فيها التضعيف مرة أخرى فيقال مثلا: □ב˜ **libbī=** قلبي.

كما يقال في السريانية مثلا **baz Ŭ** بمعنى (سَلَبَ) وعند إسنادها إلى الغائبة مثلا يقال Ŭ˜ < **bazzat** (سلبت) وفي المتكلم يقال كذلك (سَلَبْتُ) وغير ذلك))[٣٥].

ث: كشف أصول الظواهر اللغوية:

لجأ الدكتور رمضان عبد التواب إلى المقارنة بين اللغات السامية من أجل تحليل بعض الظواهر اللهجية التي شاعت في اللهجات القديمة ولها وجود (أيضاً) في اللهجات الحديثة، ومن أبرز تلك الظواهر اللهجية:

١- الاستنطاء.
٢- التلتلة.
٣- الفحفحة.

الاستنطاء:

الاستنطاء هو قلب العين الساكنة نوناً إذا جاورت طاءً. وذلك شائع في الفعل (أعْطى) إذ يصير في بعض اللهجات العربية (أنْطى).

وقد نسبت هذه الظاهرة اللهجية إلى أهل اليمن[٣٦] إلى طائفة من القبائل العربية منها؛ سَعْد بن بكر، وهذيل، والأزد وقيس والأنصار[٣٧]، ورجح الدكتور أحمد علم الدين الجندي أنها مختصة بأهل اليمن[٣٨].

وقد اجتهد الدارسون المحدثون في تفسير هذه الظاهرة اللغوية، فبعد أنْ استبعدوا تفسير الظاهرة بقلب العين نونا بسبب عدم القرابة الصوتية بينهما حاول كل منهم تفسير (الاستنطاء)تفسيراً يتفق مع الواقع اللغوي.

وقد وردت (أنطى) في أعطى في مواضع كثيرة عدّها صاحب كتاب اللهجات العربية في التراث، ولعل أهم تلك المواضع ما ورد في مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف طلحة بن مصرف ومصحف الربيع بن خثيم[٣٩]. وأورد الجندي عددا من الآثار عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جاءت فيها(أنطى) بدلا من (أعطى)فضلا عن الكثير من الأبيات الشعرية في العصر الجاهلي [٤٠].

وقد وظف الدكتور رمضان عبد التواب مقارنة اللغات السامية في سبيل تفسير لجوء بعض القبائل العربية نحو هذه الظاهرة اللغوية، إذ قارن بين العربية والعبرية والسريانية حتى يكشف عن أصول هذه الظاهرة اللغوية،قال: ((إننا إذا رجعنا إلى اللغات السامية لنبحث فيها عن مقابلة كلمة (أعطى) وجدنا في العبرية נתן أي نون وتاء ونون، وفي السريانية في المضارع →Л→Ц مع إدغام النون الأولى في التاء، والنون الثانية في لام الجر))[٤١].

ثم بيَّن أنَّ الذي حدَثَ في هذه الصيغة (أنطى) عند القبائل التي تنطق بها هو أنَّ الصيغة قد أُخِذَ فاؤها من العبرية والسريانية، وبقي عينها ولامها عربيتين، ويقول الدكتور رمضان: ((ولعل ما حدث في هذه القبائل التي روي عنها الاستنطاء هو عملية نحت لما في هاتين اللغتين واللغة العربية، فأخذ فاء الفعل من العبرية والسريانية وبقيت عينه ولامه كما هما في العربية))[٤٢].

ولعل الناظر في ذلك يرى بوضوح بعد هذا الرأي عن واقع الحال، فهل يعقل أنْ يكون الذي نحت ذلك قد اطلع على هذه اللغات وجاء لينحت منها كلمة.

و لا يفوتنا أنْ نثبت رأينا بأنَّ الدكتور رمضان عبد التواب تأثر بالغربيين كثيرا وحاول تطبيق ما يقولونه في علومهم حرفيا على العربية،وهذا واضح في صفحات كثيرة من كتابه (فصول في فقه العربية)، مع إن للعربية خصائص ودقائق انمازت بها عن غيرها من اللغات، فإذا كانت تشترك مع اللغات الأخرى في بعض الخصائص فأنها احتفظت بخصائص أخرى ولم تشرك بها غيرها،ولذلك لا ينطبق على العربية ما ينطبق على غيرها حرفيا، ولعل ذلك أبرز ما يؤخذ على الدكتور رمضان أنَّه وقع فيه.

التلتلة:

التلتلة هي كسر حرف المضارعة(عدا الياء)[٤٣]، وذلك مثل قولك:اعْلَم،و تِعْلَم، وهي ظاهرة لغوية شائعة عند الكثير من القبائل العربية، فمن المصادر العربية ما ينسبها إلى قبيلة بهراء، ومنها ما ينسبها إلى الكثير من القبائل العربية مثل: قيس، وتميم، وأسَد، وربيعة، وعامة العرب، وأمّا الحجازيون وبعض القبائل العربية مثل هذيل فيقولون: (تَعْلَم).

ورد في كتاب اللهجات العربية الغربية القديمة: ((كانت حركة حرف المضارعة فتحة (في العربية الفصحى) في لهجات الحجاز وعند أعجاز هوازن وأزد السرات وبعض أجزاء هذيل. ولكنها عند تميم وقيس وأسد وربيعة وعامة العرب كانت كسرة))[٤٤]. ومثل ذلك ذكر الدكتور صبحي الصالح في كتابه دراسات في فقه اللغة[٤٥].

ونعلم أنَّ العربية الفصحى قد أخذت برواية الفتح لا الكسر، وهنا قد يسأل سائل عن الأصل في ذلك هل الفتح أم الكسر ؟.

وفي سبيل الإجابة عن هذا التساؤل نلاحظ أنَّ الدكتور رمضان عبد التواب يلجأ إلى اللغات السامية في سبيل الكشف عن هذا الأصل، أي أصل هذه الظاهرة، فيقول: ((وهذه الظاهرة سامية قديمة توجد في العبرية والسريانية والحبشية، والفتح في أحرف المضارعة حادثٌ في رأيي في العربية القديمة، وبدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى، وبدليل ما بقي من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة))[٤٦].

فنلاحظ أنَّ الدكتور رمضان عبد التواب قد لجأ إلى المقارنة بين اللغات السامية، أو إلى طريقة بعضها في نطق أحرف المضارعة لينص على أنَّ ظاهرة التلتلة أصيلة بدليل وجودها

في عدد من اللغات السامية، وأنَّ الفتح – وهو ما هو عليه العربية الفصحى قديما وحديثاً – حادث في رأيه.

الفحفحة:

الفحفحة هي قلب الحاء عينا وذلك في (حتى) تحديداً، وقد نسبت هذه الظاهرة اللهجية إلى قبيلة هُذيل، فقد جاء في المحتسب قول ابن جني (ت ٣٩٢ هـ): ((روي عن عمر أنَّه سَمِعَ رجلا يقرأ (عتى حين)فقال من أقرأك ؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل هذا القرآن فجعله عربيا، وأنزله بلغة قريش، فاقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام))[٤٧].

وذكر الدكتور الجندي أنها تنسب إلى تميم وقيس وأسد[٤٨].

وتساءل صاحب كتاب اللهجات العربية الغربية القديمة قائلا: ((تُـرَى هل كانت (حتى)الممالة في اليمن ناتجة عن تأثرٍ قديم بالصيغة السبئية والتي كانت كما يظن(ع ادد) التي تشبه السوريانية(ادى)؟))[٤٩]

ومن أجل أن يفسر لنا الدكتور رمضان عبد التواب ظاهرة قلب الحاء عينا في (حتى) وحدها عند الهذليين يقارن بما حصل في اللغتين العبرية والآرامية.ويبين أنَّ الذي حدث هو جهر الحاء فصارت عينا في هاتين اللغتين الساميتين، وهذا ما يمكن عدُّه حاصلا في لهجة قبيلة هذيل، ويقول: ((وهذا يذكر بما يقابل كلمة (حتى) في العبرية والآرامية، فهي في الأولى (עד) وفي الثانية (عـد) أي العين والدال، أي أنّه كما جُهرت الحاء في لغة هذيل فأصبحت عينا، فإنَّ هذا ما حدث في هاتين اللغتين، وزاد الأمر فيهما أنْ تماثلت التاء مع العين فجهرت هي الأخرى فصارت دالا))[٥٠].

الخاتمة ونتائج البحث

لقد استعرضنا خلال الصفحات السابقة محاولات الدكتور رمضان عبد التواب في الاستناد إلى الأسس للمنهج المقارن في دراسة وتحليل الكثير من الظواهر اللغوية، ولاسيما تلك التي ثار حولها جدل واسع بين اللغويين.

وقد تبيَّن أنَّ الدكتور رمضان قد اعتمد الأسس المعروفة للمنهج المقارن في تحليله للظواهر اللغوية، ومن البحث تبيَّن:

١- حين لجأ الدكتور رمضان عبد التواب إلى تحليل جملة من الظواهر اللغوية قارن بين اللغات التي تنتمي إلى لغة أو أرومة واحدة، ولما كان كتابه قد وُضِعَ لبحث قضايا فقه اللغة العربية فإنَّه قارن بين العربية وطائفة من أخواتها الساميات، كالعبرية والحبشية والأكادية.

٢- كان الهدف من تلك المقارنة هو الكشف عن حداثة بعض الظواهر اللغوية السامية، وأصالة ظواهر أخرى كظاهرة الإعراب التي أثبت البحث المقارن أنَّ الإعراب في العربية أصيلٌ ليس حادثاً.

٣- فند الرأي القائل بأن الأصل في اللغات السامية أن تكون ثنائية الأصول– وهو قول الأب مرمرجي– وأثبت أن الأصل الثلاثي هو الشائع في العربية وفي غيرها من اللغات السامية.

٤- كشف بحسب قوانين التطور اللغوي والمقارنات السامية رجوع هذه اللهجات إلى أصولها اللغوية.

٥- كشف بحسب قوانين التطور اللغوي والمقارنات السامية رجوع هذه اللهجات إلى أصولها اللغوية.

وفي ختام بحثنا نرجو أنْ نكون قد كشفنا عن معالم المنهج المقارن عند الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه: فصول في فقه العربية.

ونستغفرُ اللهَ من الخطأ والزلل، وما جانبنا الصواب فيه، وعذرنا في ذلك أنَّ عمل البشر وإن حَسُنَ فإنَّ النقص ملازمه.

وآخر دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين،والصلاةُ والسلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلهِ وصحبهِ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

هوامش البحث:

١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية. د إسماعيل أحمد عمايرة. ٤١.

٢) ينظر: المصدر نفسه ٤٣.

٣) المصدر نفسه ٤١.

٤) ينظر المصدر نفسه ٦٢ وما بعدها.

٥) المستشرقون والمناهج اللغوية ٦٦.

٦) ينظر مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ٨٣.

٧) العين ٣/ ٣٩٢.

٨) جمهرة اللغة ١ / ٤٩١.

٩) مقاييس اللغة ٥ / ٣٦١.

١٠) مقاييس اللغة ٥ / ٧٦.

١١) تاج العروس ٣٥ / ٥٣٤.

١٢) ينظر المستشرقون والمناهج اللغوية ٤١.

١٣) ينظر المصدر نفسه ٤١.

١٤) مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ١٦٧.

١٥) الموقع الألكتروني

(http://ar.wikipedia.org/w/index.Php?title= رمضان عبد التواب&oldid=)

١٦) ينظر: فصول في فقه العربية ٤٥.

١٧) فصول في فقه العربية ٤٥.

١٨) ينظر: المصدر نفسه ٤٦.

١٩) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ٤١.

٢٠) المصدر نفسه ٤٦.

٢١) الإيضاح في علل النحو ٦٩.

٢٢) المصدر نفسه ٧٠ – ٧١.

٢٣) الإيضاح في علل النحو ٦٩.

٢٤) ينظر:من أسرار اللغة ١٩٨.

٢٥) دراسات في فقه اللغة ١٢٦.

٢٦) فصول في فقه العربية ٣٨٤.

٢٧) ينظر مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ٦.

٢٨) ينظر فصول في فقه العربية ٤٧.

٢٩) ينظر العين ٧ / ٣٠٠.

٣٠) المصدر نفسه ٤٨.

٣١) ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف،لابن الأنباري (المسألة رقم ١)١ / ١٧ وما بعدها.

٣٢) ينظر فصول في فقه العربية ٤٩.

٣٣) فصول في فقه العربية ٣٠٠.

٣٤) المصدر نفسه ٣٠٠.

٣٥) فصول في فقه العربية ٣٠٠ – ٣٠١.

٣٦) ينظر لسان العرب ١٥ / ٣٣٣.

٣٧) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي ١ / ٢٢٢.

٣٨) ينظر اللهجات العربية في التراث ٣٨٦.

٣٩) ينظر اللهجات العربية في التراث ٣٨٧.

٤٠) ينظر المصدر نفسه ٣٨٧.

٤١) ينظر: فصول في فقه العربية ١٢٢.

٤٢) ينظر: المصدر نفسه ١٢٢.

٤٣) ينظر اللهجات العربية في التراث ٣٨٨.

٤٤) اللهجات العربية الغربية القديمة ١١٤.

٤٥) ينظر دراسات في فقه اللغة ٧٣.

٤٦) فصول في فقه العربية ١٢٥.

٤٧) المحتسب ١ / ٣٤٣

٤٨) ينظر اللهجات العربية في التراث٣٦٥ – ٣٦٦.

٤٩) اللهجات العربية الغربية القديمة ٨٤.

٥٠) فصول في فقه العربية ١٣٩.

قائمة المصادر والمراجع

١- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، قدم له: حسن حمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨م.

٢- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، القاهرة / ١٩٥٩ م.

٣- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي(ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٤- جمهرة اللغة، أبو بكر ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي البصري(ت ٣٢١هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت/ط١ – ١٩٨٧م.

٥- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت /لبنان، ٢٠٠٩ م.

٦- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت ١٧٥ هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٧- فصول في فقه العربية، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي – القاهرة،ط٣، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م.

٨- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت ٧١١ هـ)، دار صادر – بيروت، ط١.

٩- اللهجات العربية الغربية القديمة، جيم رابين / ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار السلاسل للطباعة والنشر / الكويت، ١٩٨٦.

١٠- اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب،ط١، ١٩٧٨.

١١- المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢ هـ). تحقيق: علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار سزكين، ط٢. ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٢- مختصر في شواذ القراءات، ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، عني بنشره برجشتراسر، دار الهجرة، د ت.

١٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي(ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه، دار الجيل، بيروت، د ت.

١٤- المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة، دار وائل، عمان – الأردن،ط٣، ٢٠٠٢م.

١٥- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل - بيروت /ط٢ - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٦- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، د. نعمة رحيم العزاوي، منشورات المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

١٧- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس. مكتبة الإنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٥ م.

١٨- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث. د. علي زوين. بغداد ط١. ١٩٨٦ م.

١٩- الموقع الألكتروني:

(http://ar.wikipedia.org/w/index.Php?title= رمضان عبد التواب&oldid=)